Des:Mariam
قصة قصيرة
كانت هنا
مريم عمرو
عصير الكتب
للنشر الألكتروني

قصة:كانت هنا

للكاتبة:مريم عمرو

تصميم الغلاف: مريم حسين

المقدمة

ترى الموت وهو ينزع مئات الأرواح من حولك... لا تقوى على فعل شيء، طالما أن الموت لم يمسك أو يمس أحباءك، فأنت بخير لا محالة، ولكن ماذا إن أصبحت فجأة مسئول عن أرواح هؤلاء الذين يقتربون من حافة الموت؟ كل لحظة بإمكانك إنقاذ حياة أحدهم، وإن لم تستطع فسيكون الموت مصيره إذا شاء الله. ماذا إن رأيت الموت بات قريبًا منك للغاية...لقد اختطف أقرب الأقربين من حولك..ومن كان السبب؟ لا أدري...تريد أن تذوق طعم الوحدة ومرارة الفقدان؟ تعالَ معي، ولكن تذكر أنك وحدك المسئول عن قرارك!

"أتعرف يا مُحمد؟

أنت أغلى ما لديّ في هذه الدنيا، لم أنجب سِواكَ، وكنت لي خير ذرية، برغم أنك لم تتجاوز السادسة عشر بعد، إلا أنني أثق أنك ستحقق إنجازات عظيمة عندما تكبر."

قالتها أمي ونحن جالسان في بيتنا ذات ليلة، وضَعَتْ رأسي على رجلها وبدأتْ تداعب خصلات شعري، بينما ابتسمتُ لها بحب، وقلت:

-وأنا أحبك كثيرًا أمي، أتمنى أن أكون فخرًا لكِ عندما أنهي دراستي مثل شباب بلدتنا، وأدافع عن وطننا الحبيب -غزة- ضد الاحتلال اللعين.

ما إن أنهيتُ جملتي حتى نهضتُ سريعًا، واعتدلت في جلستي، وابتسمت ابتسامة دلت على فضول شديد، وقلت:

-أمي، أنا لديّ أحلام وأمنيات كثيرة أتمنى تحقيقها، قولي لي...هل أنتِ أيضًا ما زلتِ تملكين أهدافًا وأمنيات تريدين تحقيقها؟ أم أن الأمنيات تموت عندما نكبر؟، وأمنياتي التي أريد تحقيقها الآن ما هي إلا أحلام واهية ستنتهي مع اكتمال نضوج عقلي؟

أسرعتْ أمي تجيب:

-لا يا بنيّ الأحلام لا تموت أبدًا، هي شيء جميل ينبت داخلنا منذ نعومة أظفارنا، ويكبر معنا، ولا يجب أن نتجاهلها ، الأمنيات لا تموت، ولكن

أيضًا ليس كل ما تتمناه سيحدث لمجرد أنك تريده، الواقع لا يقبل بكل شيء، وفي بلدنا هذه...أعظم إنجاز من الممكن أن تحققه...هو أن تستشهد وأنت تحارب ضد الاحتلال يا ولدي.

اكتفيت بإيماءة بسيطة، ورحتُ أفكر لِمَ لا أستطيع فعل كل ما أتمنى؟ ما العائق؟ هل لأنها لا تتفق مع واقعي؟ صبي مثلي على مشارف إدراك الشباب يتمنى أن ينعم بحياة يتحقق له فيها رغد العيش، ويحقق كافة أحلامه، ولكن يبدو من كلام أمي أن هناك أشياء قُدِّر لنا أن تعيش داخلنا، وتكبر معنا، ولا تحدث على أرض واقعنا أبدًا!

انتشلني من أفكاري صوت أمي وهي تتابع:

-ولكني أثق أنك برغم كل شيء ستستطيع تحقيق كافة أحلامك، تستطيع فعلها ما دمت تؤمن بذلك.

-حسنًا ولكنكِ لم تخبريني بعد...ما هي أمنياتك؟

تنهدت بقوة وهي تجيب:

-هما أمنيتان فقط إن تحققا سأكون أسعد امرأة على وجه الأرض.

الأولى:

أن يمد الله في عمري، فأرى أحفادك وأحملهم بين ذراعيّ.

والأمنية الثانية -وبرغم أنك ستتعجب منها-:

-أن أموت شهيدة، تلك الأمنية تحديدًا ظلت تعانق تفكيري منذ نعومة أظافري.

احتضنتها بشدة وأنا أقول:

-أسأل الله أن يمُدّ في عمرك يا أمي، وأن يرزقكِ حسن الختام.

قالت بخفوت:

-آمين.

صمتت هنيهة، ثم أمسكتْ كفّ يدي بقوة وهي تقول بنبرة حملت الكثير من الترجي:

- عِدْني يا بُنَيَّ أن تصبح طبيبًا تداوي مرضانا في غزّة، يوميًا يصاب المئات، ولا يتسع لهم مكانًا لمداواتهم، أتمنى أن تكون سببًا بعد الله في شفاءهم، وهذه أمنية ثالثة لي بالمناسبة.

قبلتُ كفها بحنان وأنا أقول:

أعدك يا أمي...سأحققها إن شاء الله.

***

اليوم....وبعد مرور ثمانية أعوام على تلك الليلة، ها أنا ذا...أقف وأتسلم شهادة التخرج من كلية الطب، وهناك بين الصفوف تجلس أمي على أحد المقاعد وتصفق لي بحرارة، مجرد أن التقطتُ الشهادة،

حتى هرعتُ إليها، وقبلتُ يدها بحب، أمي لم تغفل عني ثانية منذ ولادتي، لقد تولت تربيتي بعدما استشهد أبي وهو يدافع عن وطننا المحتل، هي اليد التي تربت على كتفي وقت الشدة، والحضن الذي ألجأ إليه عندما أحتاج إلى استشعار الأمان، كل الأشياء الجميلة في العالم كانت تتلخص في أمي، إنها تملك قدرة كبيرة على زرع الأمل داخلي رغم كل ما عانته من آلامٍ، لو كان باستطاعتي لأعطيتها عمري كله تقديرًا لكل شيءٍ فعلته من أجلي.

عدنا للبيت، وقلت لها وعيناي تلمعان ببريق السعادة:

-تذكرين يا أمي عندما كنت في السادسة عشر، وتواعدنا أن أصبح طبيبًا يومًا ما وأداوي مرضانا في غزة؟ لقد أوفيت بوعدي يا حبيبتي.

احتضنتْ وجهي براحتيّ كفيها، وقالت ودموع الفرحة تترقرق داخل عينها:

-واللهِ إن سعادتي اليوم بك لا يسعها العالم بأكمله، الحمد لله الذي مد في عمري فجعلني أسعد بهذه اللحظة.

ران الصمت للحظات قبل أن تقطعه بقولها:

-الآن...لم يتبقَّ سوى أمنيتين، برأيك هل من الممكن أن يتحققا؟

قلتُ لها وأنا أغمز بأحد عيناي:

-سيتحققا ما دُمتِ تؤمنين بذلك.

قالت وهي ترد ليَ الغمزة :

-من قال لك هذه العبارة؟

أسرعتُ أدفن رأسي بين أحضانها وأنا أقول:

-أمي هي من قالت لي ذلك، إنها أغلى شيء لي في هذه الدنيا، وأحبها حبًا جمًا.

مسَّدت على شعري، وهمستْ لي:

-يجب أن تنام الآن، ولكن لا تنسَ قيام الليل يا بُنَيَّ، غدًا سيكون يومًا شاق، يجب أن تبحث عن عمل.

قبلتُ كفيها وأنا أقول:

-حسنًا يا أمي، طابت ليلتك.

***

مرت الأيام وقد وفقني الله في إيجاد عمل، كنتُ أحيانًا أبات ليالٍ في المشفى من أجل المصابين، ومن أجل إجراء عمليات لهم، يوميًا يصلنا حالات حرجة عديدة، فيتحول طاقم الأطباء كلهم لممارسة عملهم في عجالة من أمرهم، حينما نستطيع إنقاذ واحدٍ منهم نشعر أننا أحيَيْنا الناس جميعًا، نحنُ في غزة تعودنا على القصف، وصوت طلقات النار،

ويوميًا نسمع خبر استشهاد المئات من الشباب والفتيات، ولكن عندما يصلنا مصاب، برغم من أن حالته تكون حرجة جدًا، إلا أننا نمارس عملنا ونحن نأمل أن تحدث معجزة من الله تساعد في شفاءه، ولو مات نشعر أن الحياة بأكملها قد انتهت عند هذه اللحظة ونظل نبكي وكأننا إخوانه!، ولكن الأمهات كانت تستقبل خبر استشهادهم بالزغاريد، فقد اختار الله أبناءهن ليكونوا شهداء.

أتعرف؟ الشيء الوحيد الذي كان يهوِّن عليَّ كل ما ألقاه؛ هو أنني سألتقي بأمي عندما أنتهي من عملي، بشكل تلقائي حينما أعود من الخارج...أظل أناديها باسمها، حتى تظهر لي من المطبخ بابتسامتها الحنون وتضمني داخل حضنها الدافئ دائمًا، ليلة أمس كنت أضع رأسي على رجلها-كما تعودت أن أفعل-، قالت لي:

-"حينما تسلمت عملك يا ولدي شعرتُ أنني أتممت مهمتي في هذه الدنيا، لو قبض الله روحي الآن...سأموت وأنا متيقنة أنني تركتُ ورائي رجلًا يُعتمد عليه بحق."

كلماتها أسعدتني كثيرًا وقلقتني في الوقت ذاته بشأن حديثها عن الموت، شعرتُ بالسعادة لكوني أحسستُ أنني لم أخيب ظنها وثقتها الكبيرة تجاهي، وفي الوقت ذاته شعرت بالخوف لأنها ستتركني وحدي يومًا ما...هذه الحقيقة التي أكره كثيرًا الحديث عنها.

أخيرًا انتهى يوم عملي على خير، الحالات بالمشفى حرجة للغاية، وبالكاد استطعت إنهاءها.

وصلتُ للمنزل لكني وجدتُ سيدة ملقاه على الأرض على بعد خطوات من مدخل منزلي، وجسدها تسَربَل بالدماء، لقد قُتلت على يد صهيوني، هكذا سمعت من المارة وهم يتحدثون بحزن عنها، كان من الصعب تمييز ملامحها...ولكني عرفتها على الفور، نعم...كانت أمي!

هرعتُ إليها وأنا أصرخ باسمها، أستحلفها باللهِ أن تجيب عليّ، كنتُ أتمنى سماع صوتها للمرة الأخيرة، ولكن....تذكرتُ أمنيتها التي قالتها لي منذ ثمانية أعوام لقد تحققت بالفعل! ها هيَ أصبحت شهيدة، من المؤكد أنها الآن تنعم في الجنة، أمنيتها الثالثة لم تتحقق، كانت صادقة عندما قالت لي أن ليس كل سنتمناه سنحصل عليه لمجرد أننا نريده، ولكنها قد نالت أعظم شيء من الممكن أن يناله الإنسان!

اليوم...وبعد مرور أسبوع على فراق أمي...ما زلت كلما أدخل البيت أظل أناديها حتى تخرج لي ببسمتها المعتادة، ولكن لا أحد يجيبني سوى صوت طلقات النار بالخارج، لأتذكر أنها الآن في مكان أفضل بكثير، وأتذكر أيضًا أنني ما زلت هنا...في غزة!

-تمت بحمد الله-